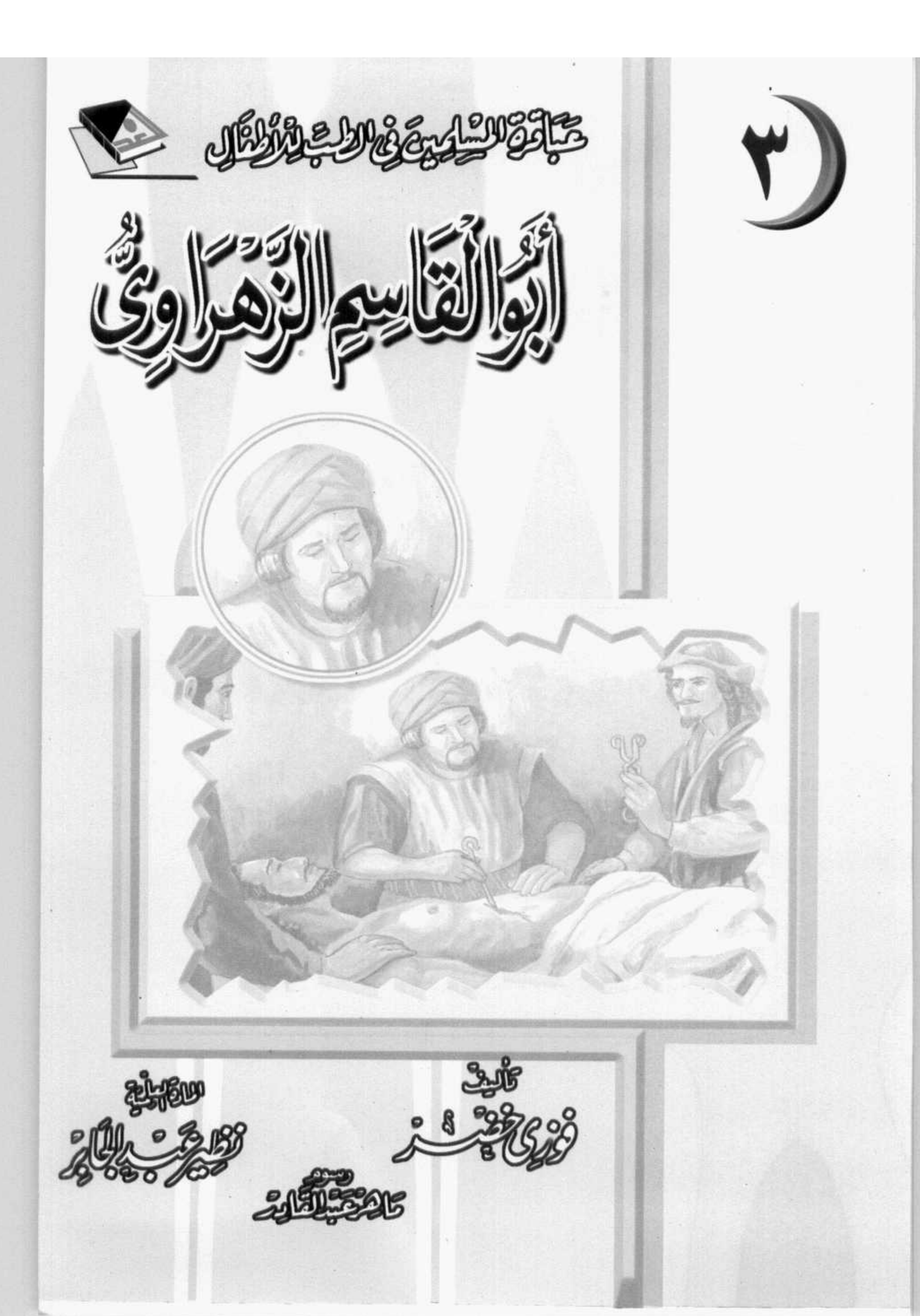


عباقرة المسلمين في الطب للأطفال

٣

أبو القاسم الزهراوي

تأليف
فوزي خضر

رسوم
ماهر عبد القادر

المادة العلمية
نظير عبد الجابر

الناشر : مكتبة ومطبعة الغد

العنوان : ٢٣ ش سكة المدينة - ناهيا - إمبابة - جيزة

تليفون : ٣٢٥٠٢٠٢

رقم الإيداع : ٩٩/٨٣١٠

الترقيم الدولي : 8 - 28 - 5819 - 977

رسوم وإخراج فني: ماهر عبد القادر

خطوط : مصطفى عمرى

مراجعة لغوية : حمزة عبد المنعم الزمر

الطبعة الأولى : صفر ١٤٢٠ هـ ـ يونيو ١٩٩٩ م





بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

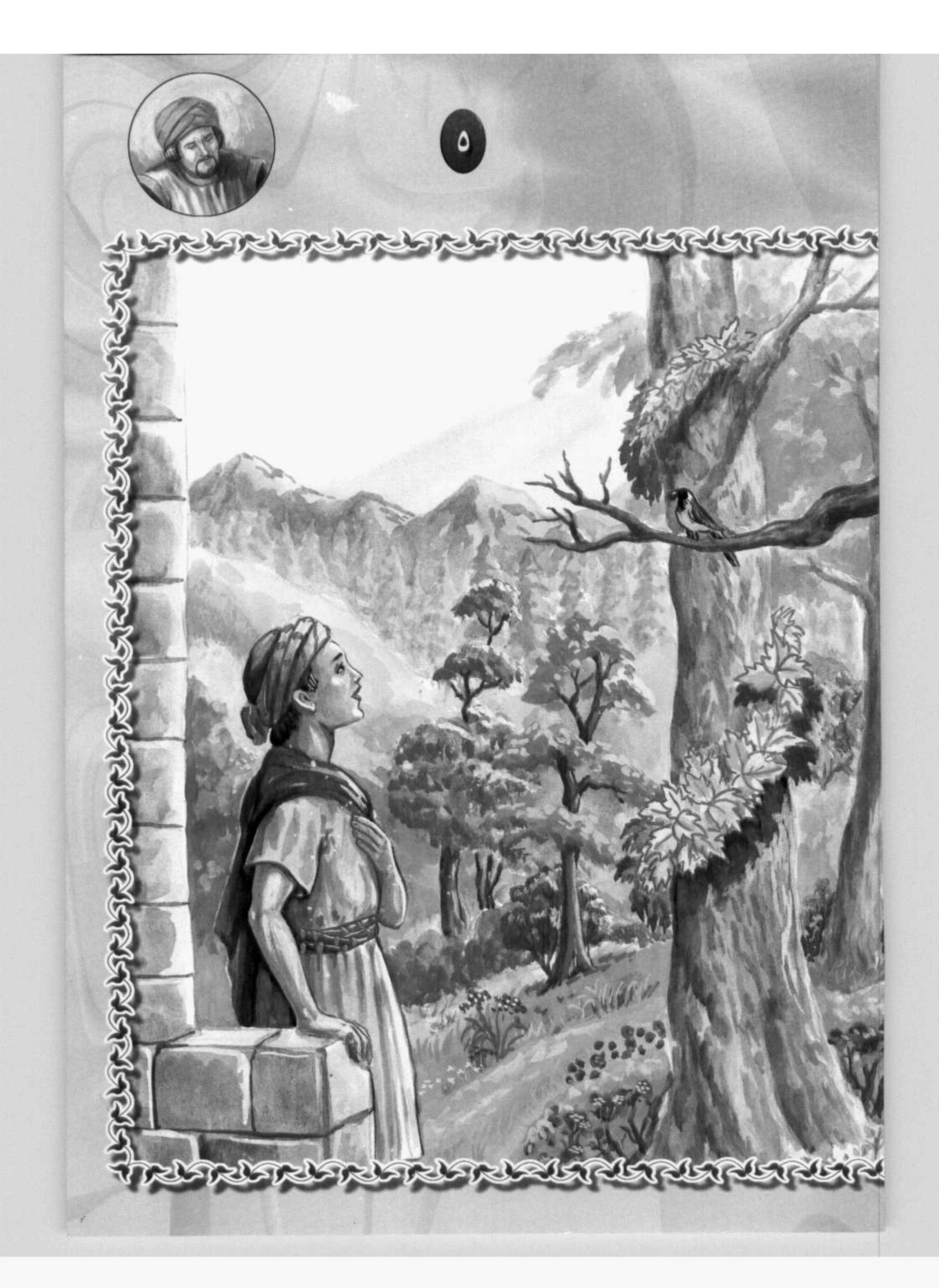
سَارَ الْفَتَى أَبُو الْقَاسِمِ خَلْفَ ابنِ عَبَّاسٍ الزَّهْرَاوِىِّ فى حَديقَةِ مَدينَةِ الزَّهْرَاءِ ، الْقَرِيبَةِ مِنْ قُرْطُبَةَ عَاصِمَةُ بِلادِ الأَنْدَلُسِ (التى هى أسبانيا الآن) وَنَظَرَ إِلَى الأَشْجَارِ والأزهار والطُّيُور ، يَتَأَمَّلُهَا وهو يَتَفكَّرُ فى قُدْرَةِ الله - عزَّ وجلَّ - فى خَلْقِ كلٍّ ما فى الْحَياةِ ، كان عُمْرُ الزَّهْرَاوِىِّ آنَذَاكَ خَمْسَةَ عَشَرَ عَاماً ، فَهُوَ مِنْ مَوَالِيدِ سنة (٣٢٤) ثلاثمائة وأربع وعشرين هجرية الموافقة (٩٣٦) ميلادية، وكان يَشْغَلُهُ كُلُّ ما يَرَاهُ ،



تَعَجَّبَ من أشْكَالِ الأشجارِ المُخْتلفَةِ ، ومن ألْوَانِ الأزْهارِ المتنوِّعَةِ ، ومن تَغْرِيدِ الطُّيُورِ الْجَمِيلَةِ .

لِكِنَّ تَفْكِيرَهُ عَادَ به سَرِيعاً إلى الموْضُوعِ الرَّئِيسِىِّ الذى يَشْغَلُ بَالَهُ ، ألا وَهُوَ جِسْمُ الإنسانِ ، وَرَأى أنَّ قُدْرَةَ الله سبحانه وتعالى - تَتَجلَّى فِى ذَلِكَ الْجِسْمِ الْعَجِيبِ .

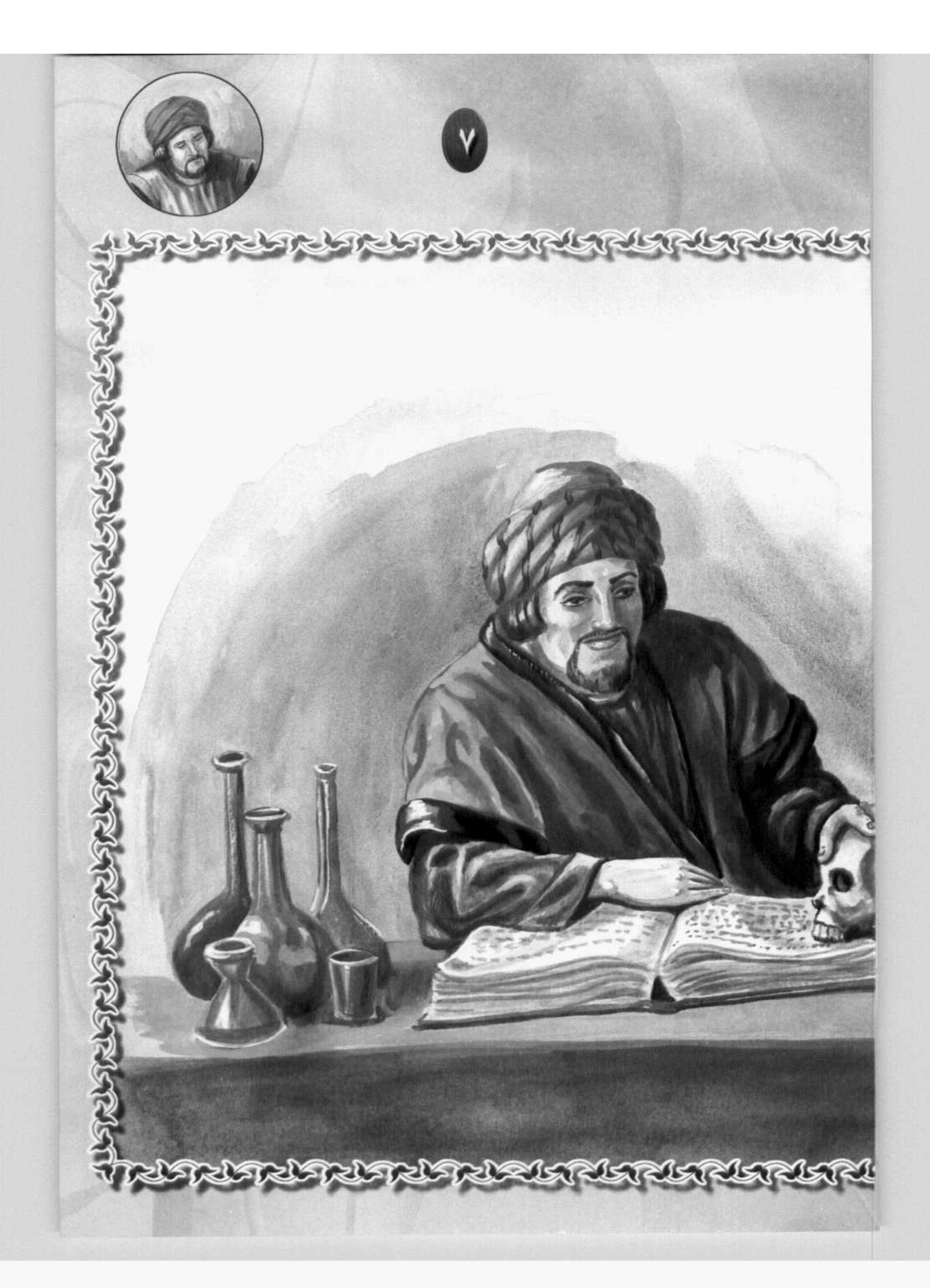
إنَّ فيه أَشْيَاءَ مُذْهِلَةَ حقاً . . . الْعَيْنُ التى تَرَى ، والأُذُنُ التى تَسْمَعُ ، وَالأنْفُ الذى يَشُمُّ ، والْحلْقُ والْمعَدَةُ ، البطْنُ وَالظَّهْرُ ، وَالرَّأسُ ، والْيَدَان والْقَدَمَانِ ، إنَّ كُلَّ عُضْوٍ من





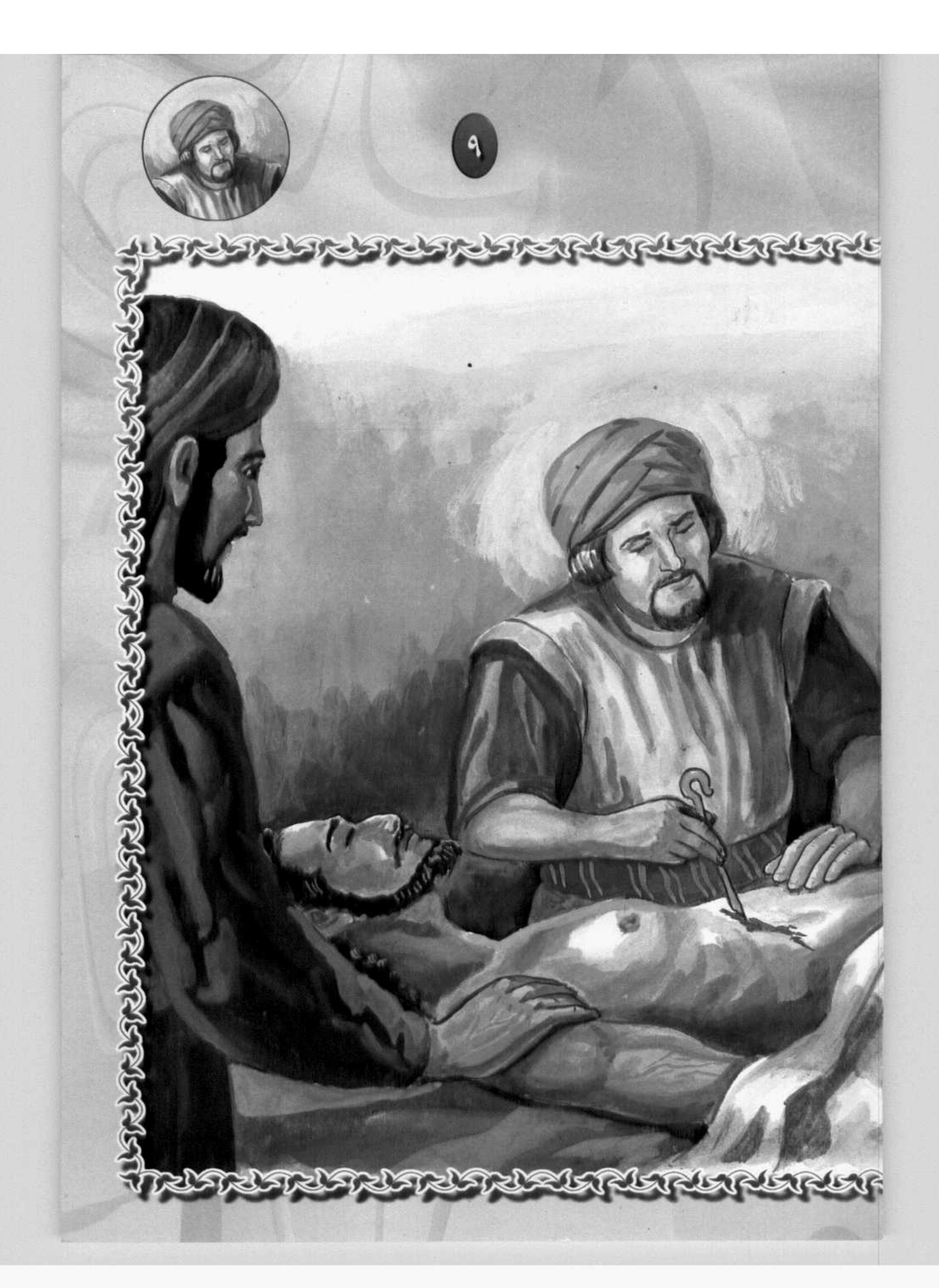
أَعضاء جِسْمِ الإنسانِ يَتَكَوَّنُ مِن جُزَيْئَاتٍ صغيرةٍ كثيرةٍ ، تُعِينُهُ على أداءِ عَمَلِهِ والقِيامِ بِوَظِيفَتِهِ .

كَبُرَ الزَّهْراوِيُّ . . . وَدَرَسَ الطِّبَّ والصَّيْدَلَةَ ، وَعَمِلَ فى الْمَجَالِ الذى يَهْتَمُّ به ، وَهُوَ جِسْمُ الإنسان ، وأَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ خَبَايا هذا الجِسْمِ الْعَجِيب فَدَرَسَ التَّشْرِيح دِراسَةً مُتَعَمِّقَةً ، وَانْتَقَلَ إلى قُرْطُبَةَ العاصِمَةَ حيثُ عَمِلَ فى المستشفى الْكَبِيرِ هُناك ، وَرَأى حَالات مَرَضِيَّةً مُتَنَوِّعَةً ، وَوَجَدَ أَنَّ بَعْضَهَا يَحْتَاجُ إلى إِجْرَاء عمليَّات جِرَاحِيَّةٍ ، حتى يَتِمَّ الشفاءُ بإذن الله .





حِينَذَاكَ بَدَأَ اهْتِمَامُ الزَّهْرَاوِيِّ بِالْجِرَاحَةِ ، فَدَرَسَ الْعملِيَّاتِ الَّتِى أَجْرَاها الأطباءُ قَبْلَهُ على مَرِّ الْعُصُورِ ، فَوَجَدَ أَنَّها كانت تُجْرَى بِطَرِيقةٍ بِدائِيَّةٍ ، تُعرّض المريضَ لِكَثِيرٍ مِنَ الآلام وكَثِيرٍ من الْمُضَاعفات التى تُؤَدِّى إلى فَشَلِهَا فِى مُعْظَمِ الْحَالاتِ ، وَوَجَدَ أَنَّ الأَطِبَّاءَ كانوا فى حاجة إِلَى كَثِيرٍ من الآلات وَالأَدوَاتَ الجِرَاحِيَّة ، لِذَلك قَرَّرَ الزهراوىُّ أَمْرَيْنِ ، أَوَّلُهُمَا : أَنْ يَجْتَهِدَ فى اخْتِرَاعِ آلات جِرَاحِيَّةً تُعِينُ الطبيبَ على إِجْرَاءِ العمليات المختلفة ،

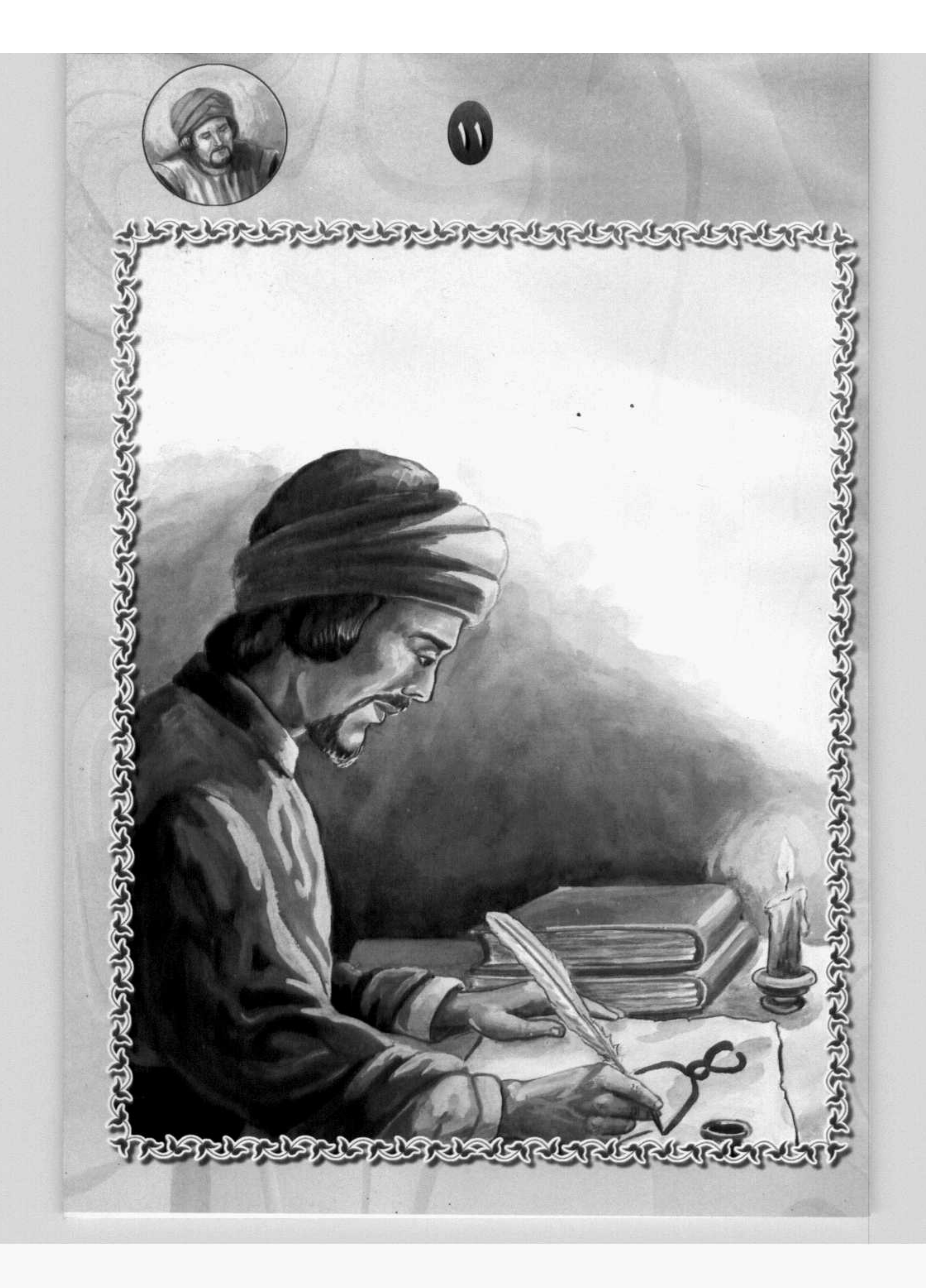




وثانيهما : أنْ يُؤلِّفَ كتاباً يَشْتَمِلُ على جُزْءٍ نَظَرِىٍّ فى الطبّ ، وعلى جُزْءٍ آخرَ عن الجراحةِ التى كانوا يُسَمُّونَها (عمل اليد) ، يَذْكُرُ فيه العمليّاتِ الجراحيَّةَ التى يَنْوِى إجْراءَها .

ورَأى الزهراوىُّ أنّ أىَّ طَبِيبٍ بَارِعٍ يَسْتَطِيعُ أنْ يَصِفَ دَوَاءً لمَريضٍ مَّا ، ولَكِنْ هُنَاكَ حَالات لا يَصْلُحُ فيها الدَّوَاءُ ، وإنَّما تَسْتَلْزِمُ أنْ يَقُومَ الطبيبُ بِفَتْحِ بَطْنِ الْمَرِيضِ ، مِثْلَ الْخُرَّاجِ الَّذى يُصِيبُ الْكَبِدَ ، والْحصَى الذى يَتَكَوَّنُ فى الْمَثَانَةِ وَغَيْرِ ذلك من الإصابات الْمُختلفة ، لهذا قَرَّرَ الزهراوىُّ أنْ يَجْتَهِدَ فى اقْتحَامِ مَجَالِ الْجِرَاحَةِ ، مُتَسَلِّحاً بالعلمِ الوافِرِ والدِّقَّةِ المتناهِيَةِ والرَّغْبَةِ الجارفَةِ فى التخفِيفِ عن المرضَى .

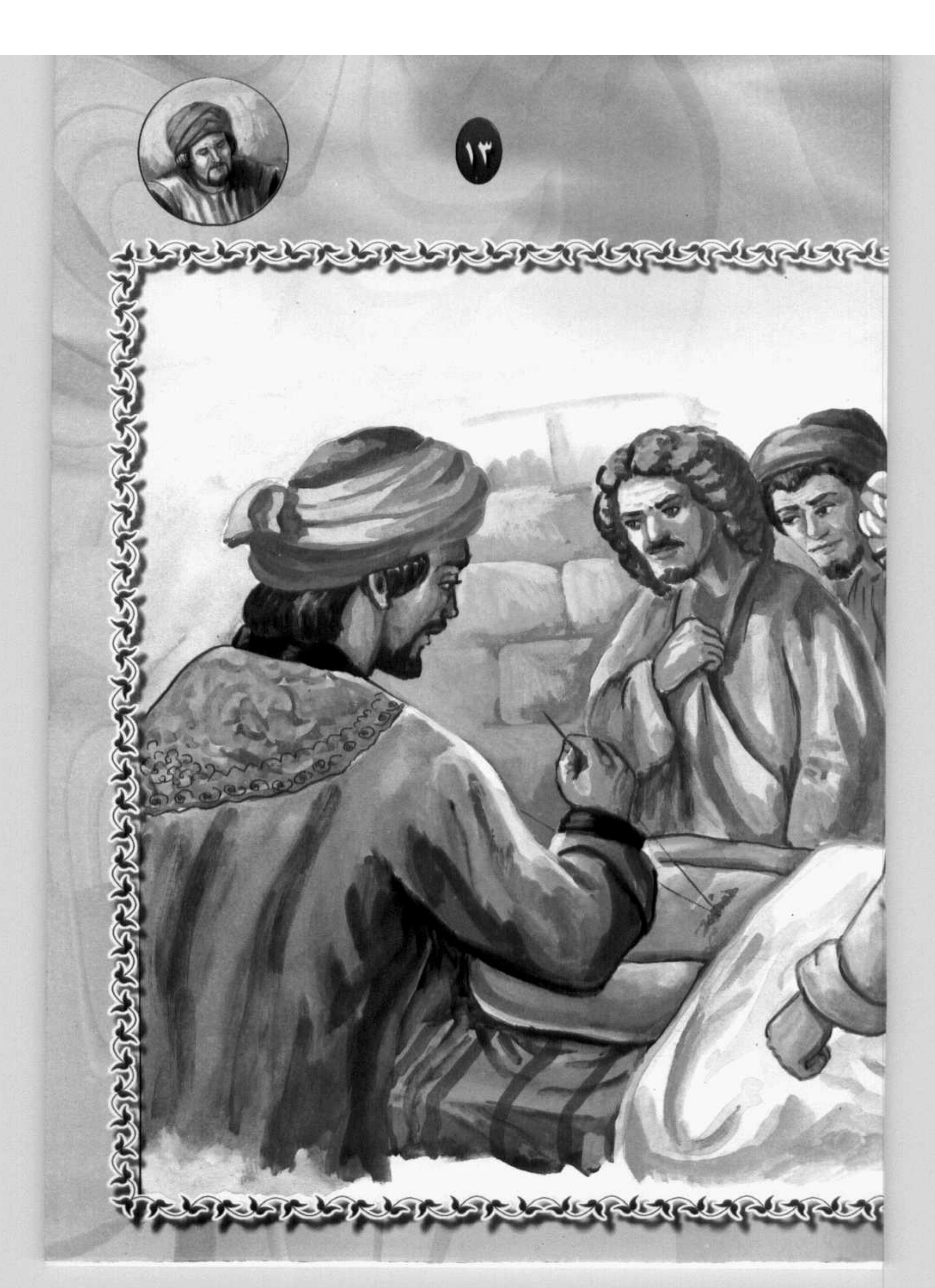
وبَدَأَتْ سِلْسِلَةٌ من العمليات الْجراحيَّة ، أصَابَتِ الأطبَّاءَ بِذُهُولٍ من دِقَّةِ الزَّهراوىِّ فى إجْرَاءِ كُلِّ عمليَّةٍ تَصدَّى لإجْرَائِها ، وَعمّتِ الفرحَةُ قُلُوبَ المرضَى وقُلُوبَ أهْلِيهِمْ ، فقد خَفَّفَ مُعاناتِهِمْ وآلامَهم .





عَادَ الزهراوىُّ إلى مدينةِ
الزَّهْراءِ ، فَعَمِلَ فى المستشفى
الموجودِ بها ، وَسَعَى النَّاسُ
إليه من كافَّةِ الأَرجَاءِ ، إذِ
امْتَدَّتْ شُهْرَتُهُ إلى البلادِ
المختلفةِ ، وجاء طلابُ العلمِ
من بُلْدَانِ الأَنْدَلُسِ والمغربِ
لِيكُونوا تَلاميذاً له ، كما جاء
إليه طلابُ العلم من أُوروبا ،
فقد كان أَكْبَرَ الجرّاحِينَ فى
عَصْرِهِ ، وكان فُقَهاءُ الأندلُسِ
يَقْبلُونَ الجراحةَ بِتَحَفُّظ شديد ،
بَيْنَما كان الأوروبيونَ يُحرِّمونَ
إجراء العملياتِ الجراحيّةِ ،
وكان الزهراوىُّ صاحبَ المكانَةِ
العُلْيَا فى هذا المجالِ فى
العالمِ بِأَسْرِهِ شَرْقِهِ وَغَرْبِهِ .







ومع ذَلكَ لَمْ يكُنْ يَلْجأُ إلى الجراحة إلا إذا عَجزَت العقاقيرُ الطبيَّةُ عن العلاج ، وكان الزّهراوىُّ يُحذِّرُ الأطبَّاءَ من إجراءِ العمليَّات الجراحيَّة ، إلا إذا كانوا عارفينَ بصَغائرِ الأُمورِ وكَبائرِها فى استعْمالِ الآلات الجراحيَّة ، مَعَ علْمِهِم بالتَّشْريحِ، لأنَّ الْخطأَ فى الْجراحَة يَصْعُبُ علاجُهُ ، وأحياناً يَسْتَحيلُ .

وقد طوّر الزهراويُّ الآلاتِ الجراحيَّةَ المصنوعةَ من الْحَديدِ والذَّهَب والْفضَّة ، واختَرعَ آلاتٍ لَمْ تَزَلْ مُسْتخْدَمةً إلى يوْمنا هذا ، لَمْ يزِدْ عَلَيْهَا العلماءُ شيئاً مثْلَ خافضِ اللِّسانِ ، وقد استَعْمَلَ خيُوطَ الْحَرير للرَّبْط فى العمليَّاتِ الجراحيَّة ، وتُحَدِّدُ (د . زيجريد هونكة) الأَلْمانيَّة إنجازاتِ الزهراويِّ فى كتابها «شَمْسُ العربِ تَسْطُعُ على الغرب » فتقول :

درس الزهراويُّ تَشَوُّهَات الْفَمِ وَالْفَكِّ ، واسْتئْصَال الأَوْرامِ اللِّيفيَّة فى الأغْشيَة الْمُخَاطيَّة ، وَنَجحَ فى عمليَّة شَقِّ الْقَصَبَة الْهَوَائيَّة - التى تُنْقذُ حَيَاةَ مَرِيضٍ (الدفتيريا) وَوُفِّقَ فى إيقافِ نَزيفِ الدَّمِ بِرَبْطِ الشَّرايينَ الْكَبيرَة ، وَهُوَ فَتْحٌ عِلْمِىٌّ كَبيرٌ ادَّعَى تَحْقيقَهُ لأوَّلِ مرَّةٍ الْجرَّاحُ الْفَرَنْسِىُّ الشَّهيرُ (بارى) ، فى حين



أَنَّ الزهراوىَّ حقَّقه وَعَلِمَهُ قبل ذلك بحَوالى (٦٠٠) سنة ، كما أَنَّهُ عَلَّم تلاميذَهُ كَيْفِيَّةَ تَخْييطِ الْجُرُوحِ بِشكْلٍ داخلىٍّ ، لا يَتْرُكُ شَيْئاً مَرْئِياً منها ، وعلّمهم كَيْفِيَّةَ التَّخْييط بِإِبْرَتَيْنِ وَخَيْط وَاحدٍ مُثَبَّتٍ بهما ، واستَعمَلَ الخيوطَ المُسْتَمدةَ مِنْ أمْعاء الْقِطَطِ فى جراحاتِ أمعاءِ الإنسان ، وقد أَوْصَى فى كلِّ العمليَّاتِ الجراحيَّةِ فى الجزء الأَسْفَلِ من الإنسان أَنْ يُرفعَ الْحَوْضَ وَالأَرْجلَ قبل كل شىء ، وهذه طريقةٌ اقْتَبَسَتْهَا أوروبا مباشرةً عن الزهراوىِّ الجرَّاح العربىِّ ، ولَمْ تَزَلْ مُسْتَخْدَمَةً حتى يومِنا هذا ، وعُرِفَتْ باسم الجرّاح الألمانى القدير (لينبورج) دون أن تَذْكُرَ أَفْضالَ الجرّاح العربىِّ ، وعن الزهراوىِّ أيضاً أخذْنا طريقةَ تَرْكِ فتحة فى رباطِ الْجِبْسِ فى الكُسُورِ المفتوحَة ، وأمَدَّ الجرَّاحِينَ وأطِبَّاءَ العيونِ والأسنانِ الأوروبيين بالآلاتِ اللازمة للعملياتِ ، بواسطة الرُّسومِ الجديدةِ التى وَصَفَهَا فى كتابه الذى أَسْماهُ : « التَّصريفُ لِمَنْ عَجَزَ عن التَّأْليفِ » .

هكذا يَنْظُرُ العلماءُ العالَمِيُّونَ إلى الزهراوىِّ عَبْقَرِىِّ الجراحَة، الذى أصْبَحَ أستاذاً لعلماء أوروبا - من خلال كتابه - لمدة خَمْسَةِ قُرونٍ ، كان أثناءَها هو الكتابُ المعتمدُ فى مجالِ



الجراحة ، لِسهُولة أسلوبه ، وكثرةِ رسومِهِ للآلاتِ التى تُستَخدَمُ فى العمليّاتِ الجراحيةِ .

من الأمورِ المُدْهِشَةِ أنَّ أبا القاسمِ الزهراوىَّ قد أجْرَى عمليات فى مجالِ جِرَاحَةِ التجميلِ ، التى يَعْتَقِدُ كَثِيرٌ من النَّاس أنَّها من العملياتِ الحديثةِ ، وإنْ دَلَّ هذا على شىءٍ فإنما يَدُلُّ على عَبْقَرِيَّةِ الزهراوىِّ ، وأنه كان سابقاً لِعَصْرِهِ ، وكل هذه الإنجازاتِ العظيمةِ وغَيْرِهَا ، ضَمَّهَا كتابه « التَّصريفُ لمن عَجَزَ عن التأليفِ » الذى يَقَعُ فى ثلاثينَ جُزءاً ، وتَمَّتْ تَرْجَمَتُهُ إلى كثيرٍ من اللغاتِ .

لقد كان الزهراوىُّ صاحبَ فِكْرٍ جَدِيدٍ ، فهو الذى جَعَلَ من الجراحَةِ فرعاً طبياً ذَا مكَانَةٍ ساميةٍ بين فُرُوعِ الطبِ ، وهو واضعُ الأُسُسِ الحديثةِ لهذا العِلمِ، لذلك أَطْلَقوا عليه فى العلم كلِّه لَقَبَ : (أبُو الجراحةِ) ، ولَمْ يكُنْ باستِطَاعَةِ الزهراوىِّ تحقيقَ كلِّ هذه الإنجازاتِ دُونَ اجتهادٍ وصبرٍ وإقدامٍ ، وإيمانٍ عميقٍ بقُدْرَةِ الله - عزَّ وجلَّ - فى خَلْقِهِ ، إذْ كان دائِمَ التفكيرِ فى خَلْقِ الله سبحانه وتعالى .